مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
مؤتمر اللغة العربية وآدابها الدولي الثاني // أربيل 30 - 31 / 7 / 2025
الجزء الثاني
أيلول / 2025
doi.org/10.52866/esj.2025.27

لون البشرة في الرواية المعاصرة الأمريكية والعربية
دراسة ثقافية مقارنة (نماذج مختارة)

م .د غادة جمال مكي
جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية - قسم اللغة العربية

مستخلص:

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على مسألة اللون في المجتمعات التي عانت من الاسترقاق ، وتسيطر عليها عقلية المسترِق حتى ترسخت في لا وعيها الجمعي للتحكم في مستقبلها. إذ تعمل الروايات الأمريكية والعربية المختارة على ابراز الواقع السياسي والثقافي في المجتمع في الحقبة المعاصرة ، وسنرى مدى تشابه الواقع الأمريكي مع الواقع العربي حول مسألة العنصرية واللون كمعيار للجمال ، كما تناقش أيضا مسألة التنزيح الثقافي الذي تعاني منه الأقليات في الدول التي تسيطر عليها ثقافة أحادية لا تحترم التنوع ، مما نتج عنه عقدة اللون الأبيض لدى الشخصية السوداء

الكلمات المفتاحية : لون البشرة ، العنصرية .

D. Ghada Gamal Makki
University of Baghdad / College of Education, Ibn Rushed for Human Sciences / Arabic Language Department
ghada.jamal@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

Abstract :

The study aims to shed light on the issue of color in societies that have suffered from slavery, and are controlled by the mentality of the slaver until it has become entrenched in their collective unconscious to control their future. American and Arab novels work to highlight the political and cultural reality in society in the contemporary era, and we will see the extent of the similarity of American reality with Arab reality on the issue of racism and color as a standard of beauty. It also discusses the issue of cultural displacement suffered by minorities in countries dominated by a monoculture that does not respect diversity, which resulted in a white complex in the black character.

إن للون البشرة أهمية كبرى في العلاقات البشرية التي نشأت عنها المسألة العنصرية ، إذ كان اللون البشري فتنة، وسببا في كثير من المتاعب؛ بسبب سوء الفهم أو سوء التصرف. وفي كل محاولة لتقسيم الناس حسب جنسهم كان للون البشرة الأهمية الأولى بل الرئيسة في هذا التقسيم حتى إذ انقلب هذا التقسيم إلى شيء من الترتيب يجعل أحد الأجناس أسمى من الآخر، وتتخذ هذه الظاهرة الجلدية الطبيعية التي دعت إلى التجمع وسيلة إلى الغض من أقدار الناس (سيمونز، 2009، الصفحات 11-10) ؛ لذلك ظل الكثير من ذوي البشرة السوداء يشعرون بالدونية وعقدة النقص؛ لما يبدوه البيض من تمييز عنصري اتجاههم. لكن المفارقة تكمن أن هذا التمييز لا يأتي فقط من الأبيض ، وإنما من الأسود نفسه، أي من داخل العرق الواحد. وعلى الرغم من تعدد القبائل وامتزاج الأعراق في افريقيا، يبقى سكان افريقيا في نظر العالم من ذوي البشرة السوداء ، لكن الأمر مختلف داخل مجتمعات السود ، فللون الأسود درجات، وكلما كان الشخص أقل سوادا، كان أعلى منزلة. فالشخصية من ذوي البشرة السوداء كانت تعاني من التمييز العنصري الذي تتلقاه من الأبيض والاسود ، وقد يكون الأشد من الأسود نفسه من بني جلدتها.

إن الروايات المعاصرة المختارة لهذه الدراسة سلطت الضوء على مسألة اللون في المجتمعات التي عانت من الاسترقاق ، وتسيطر عليها عقلية المسترِق حتى ترسخت في لا وعيها الجمعي للتحكم في مستقبلها. إذ تعمل الروايات الأمريكية والعربية على ابراز الواقع السياسي والثقافي في المجتمع في الحقبة المعاصرة ، وسنرى مدى تشابه الواقع الأمريكي مع الواقع العربي حول مسألة العنصرية واللون كمعيار للجمال ، كما تناقش أيضا مسألة التنزيح الثقافي الذي تعاني منه الأقليات في الدول التي تسيطر عليها ثقافة أحادية لا تحترم التنوع ، مما نتج عنه عقدة اللون الأبيض لدى الشخصية السوداء . كما حدث لـ (بيكولا) بطلة راوية توني موريسون (أكثر العيون زرقة) ، (Toni Morrison, The Bluest Eye) ، إذ تعمل الرواية على ابراز الواقع الثقافي والسياسي في الولايات المتحدة في حقبة الأربعينيات ، وتسلط الضوء على العواقب الوخيمة للعنصرية ، وكيفية استغلال الطبقة الحاكمة لمؤسسات الدولة ، والثقافة الشعبية؛ لإعادة انتاج الأقليات غير الحاكمة في حقل ثقافته، وكيفية تأثير مؤسسات التنشئة الاجتماعية على لا وعي الأجيال الناشئة، وتفرض عليهم ثقافة ولون الطبقة الحاكمة كمعيار وحيد للجمال، مما تجعلهم يتحولون إلى ضحايا يتوقون للحصول على معايير الثقافة السائدة عبر المساحيق ، أو الاضطرابات النفسية ، والجنون ، والهذيان. والرواية مقتبسة عن قصة واقعية لفتاة زامنت الكاتبة في طفولتها بالمدرسة ، فتاة سوداء حلمها الأول والأخير أن تتحصل على بشرة بيضاء ، وعيون زرقاء ؛ لتطابق معايير جمال المجتمع الأمريكي الذي تقطنه ، و تصبح جميلة ، هذا المجتمع الذي على الرغم من تنوعه تسيطر عليه ثقافة أحادية ، تفرض ثقافتها ، ولونها معيارا للجمال على بقية مكونات المجتمع . تجري أحداث الرواية في مدينة (لورين اوهايو) الأمريكية خلال العام (1941)، وهي تحكي قصة فتاة سوداء تدعى (بيكولا) عمرها أحد عشر عاما ، يجري نعت هذه الفتاة

بشكل ممنهج بـ « القبيحة « لسواد بشرتها ، فضلا عن تعرضها لأبشع صنوف التعامل من اسرتها ، والمجتمع . إذ تتعرض للاغتصاب من لدن والدها السكير (تشولي بريدلوف) ، الذي كان دائم الشجار بالألفاظ والأيدي مع الأسرة ، أما والدتها فتعمل خادمة لعائلة بيضاء ثرية ، وتربي ابنتهم البيضاء النظيفة ، مما يجعلها تزدري بيتها الفقير ، و ابنتها السوداء ، وتعاملها بمنتهى القسوة ، فيخبرنا الراوي عن استمتاعها بتربية الشقراء الجميلة ، ((تقوم بتمشيط شعرها الأشقر، مستمتعة بتقلبه وانزلاقه بين أصابعها ، (...) لا قبضات سوداء من صوف خشن يتعين تمشيطها ، وسرعان ما كفت عن محاولة العناية بدارها، (...) وتزايد اهمالها لدارها و لطفليها ، وزوجها)) (Morrison, The Bluest eye, 1993, p. 127). فنلاحظ عقدة اللون الأبيض عند الأم أيضا ، فبعد عجزها عن انجاب طفل أبيض ، وجدت أمومتها مع الطفلة الشقراء، فتحقق حلمها الذي يستحيل تحقيقه ، فقامت على اثره بإهمال طفليها. أما المجتمع الذي تعيش فيه (بيكولا) فكانت تتعرض فيه للضرب ، والنعت بالقبح ، وبأبشع العبارات من زملائها في المدرسة ، والحي الذي تسكنه ، مما جعلها تسخر من ذاتها وتتوق للحصول على عيون زرقاء وبشرة بيضاء للتخلص من معاناتها ، وتنال رضا كل من والدتها ، والمجتمع . قضت (بيكولا) جل حياتها وهي تخوض صراعا بين ذاتها و الثقافة السائدة في مجتمعها، فلم تتوصل إلى فكرة امتلاكها للعيون الزرقاء إلا بعد أن نالت منها الثقافة البيضاء السائدة وأصبحت ضحية لها. إذ نشأت في مجتمع أمريكي أبيض محاصر بالثقافة البيضاء منذ صغرها ، فضلا عن كونها سوداء تنتمي إلى اسرة فقيرة مفككة في مجتمع أبيض ذكوري. تشكل حب (بيكولا) للون الأبيض والعيون الزرقاء منذ صغرها من خلال البيئة ، حيث كانت تلعب بدمية على شكل فتاة بيضاء البشرة ، وعينين زرقاوين ، وشعر ذهبي طويل ، كما كانت تشرب الحليب بقدح يحمل صورة (شيرلي تمبل Shirley Temple) – نجمة هوليود البيضاء ، وممثلة الأطفال ذات الشعبية الكبيرة في ذلك الوقت – إذ ((كانت مولعة بالقدح الذي يحمل صورة شيرلي تمبل ، وانتهزت كل فرصة تتاح لشرب الحليب منه ، لمجرد أن تلمس وجه شيرلي الجميلة وتراه)) (Morrison, The Bluest eye, 1993, p. 23)، فكانت تحبها حد العبادة (Morrison, The Bluest eye, 1993, p. 23) . وفي يوم من الأيام كرهت(بيكولا) تلك اللعبة البيضاء ، وقامت بكسرها وتمزيقها بحثا عن سر الجمال الذي يراه الآخرون بداخلها، فتخبرنا (بيكولا): ((لم تكن لديّ الّا رغبة واحدة، هي أن أمزقها تمزيقا ، وأن اتبين ممّ صنعت ، وأن أكتشف الجاذبية ، وأن أعثر على الجمال ، مصدر كونها مرغوبا فيها، هذا المصدر الذي أفلت مني، ولكنه أفلت مني وحدي ، فيما يبدو ، فقد أجمع الكبار ، والبنات الأكبر سنّا ، والمتاجر ، والمجلات، والصحف ، ولا فتات واجهات العرض ، والعالم كله على أن الدمية الزرقاء العينين ، الشقراء الشعر، الوردية البشرة ، هي ما تعده كل بنت كنزا . يقولون «انظري هاهنا هذه جميلة، وإذا كنت في ذلك اليوم جديرة بها فسوف تحصلين عليها)) (Morrison, The Bluest eye, 1993, pp. 20–21). لا تدري (بيكولا) أن الدمية ليست جميلة في حد ذاتها ، بل اكتسبت جمالها من المجتمع الذي يمجد اللون الابيض، فالمذيعات في التلفاز ، بطلات وأبطال هوليوود ، عارضات الأزياء ...الخ جميعهم من ذوي البشرة

البيضاء. فالمجتمع لا يتوقف عن التسويق لتفوق اللون الأبيض . مما انعكس تأثيره في نفسية (بيكولا) وجعلها دائمة السؤال عن ((سرّ السحر الذي ينسجن شباكه على الآخرين، ما الذي يجعل الناس يتطلعون إليهن ويقولون : « آووووووو» ولكنهم لا يتطلعون إليّ ؟ العين تنزلق عن النساء السود فيما هنّ يقتربن منهم في الشارع والرّقة الاستحواذية للمهتم فيما هم يلاطفنهن)) (Morrison, The Bluest eye, 1993, p. 22) . كل ذلك أدى إلى تفاقم عقدة اللون الأبيض لدى (بيكولا) ودفعها للذهاب إلى أحد المشعوذين للحصول على العيون الزرقاء ، وبعدها اقتنعت أن عينيها تحولا إلى اللون الأزرق . وتنتهي الرواية بحوار (بيكولا) مع صديقتها عن زرقة عينيها وهي تنظر في المرآة قائلة:)) – ها! و كيف أبدو ولي عينان زرقاوان ؟ (...) أكثر زرقة من عيونهم ها ، لقد قال السيد سوبهيد إنهما ستدومان للأبد .

– (لأبد الآبدين ، آمين ؟) (Morrison, The Bluest eye, 1993, p. 193)، كما تخبر صديقتها إنها لم تعد تذهب إلى المدرسة بعد أن أصبحت جميلة ، وامتلكت العيون الزرقاء لأن الجميع متحيز ضدها ، كما أنها تخشى أن تقابل شخصا تكون عيونه أكثر زرقة من عينيها. فتخبر صديقتها ((بعد أن أصبحت لي عينان زرقاوان (...) لم أعد أذهب إليها. لكنني لا أهتم بذلك .

– لا تهتمين ؟

– لا لست أهتم بذلك . إنهم متحاملون (...) لا لشيء إلا لأنني أحظى بعينين زرقاوين ، أكثر زرقة من عيونهم .إنهم متحاملون . (...) أوه ، نعم عيناي الزرقاوان . مرة أخرى! انظري كم هما جميلتان ! إنهما تزدادان جمالا في كل مرة أنظر إليهما)) (Morrison, The Bluest eye, 1993, p. 197) . ثم نرى (بيكولا) تتجول في الشوارع ، وهي تهز ذراعيها ، وكأنها تحاول الطيران، وهي تنظر إلى أعلى . وهكذا امتلكت (بيكولا) عيونا زرقاء لكن للأسف بعد أن فقدت عقلها، بسبب ضغط الأسرة والمجتمع الذي لم تتحمله طفلة في مثل سنها.

أما رواية (ليكن الرب في عون الطفلة) اتوني موريسون أيضا، (God help the child), Toni Morrison أيضا، فقد سلطت الضوء على معاناة المولاتو (MULATTO)، أو المولدين – كلمة اسبانية تفيد التهجين أطلقها الاسبان على البيض الذين يولدون في المستعمرات من أبناء البيض والزنوج– (سيمونز، 2009، صفحة 31). هذه الشريحة من مجتمع السود . إذ تدور أحداث الرواية في التسعينيات، حول فتاة تولد شديدة السواد من أبوين خلاسيين MULATTO))، في أمريكا، فيكون لون بشرتها السبب في حدوث الكثير من المشاكل لوالدتها، فضلا عن المعاملة القاسية التي تتلقاها من والدتها. فالرواية تدور حول معاناة الأم بولادة طفلتها السوداء ، ومعاناة الابنة لمعاملة والدتها، والمجتمع لها في آن واحد. فلكل منهما معاناة مختلفة عن الأخرى . وعندما تكبر الطفلة التي سمتها والدتها (لولا آن)، تقرر اثبات ذاتها، وتمثيلها التمثيل الذاتي الصحيح بعيدة عن نظرات والدتها و المجتمع. فتصبح فتاة ناجحة وجميلة على الرغم من سواد بشرتها، وتُغيير اسمها إلى (برايد Bride) بمعنى العروسة ، وهو ايحاء إلى معنى الجميلة . وتتمكن من تحقيق هدفها. تتكون الرواية من فصول عدة يتوزع السرد فيها على شخصيات الرواية ، لكن أكثر الفصول تناولتها(لولا آن) ، و(برايد)، فعندما يكون الفصل معنون بـ(لولا

آن) ، نفهم إن بطلة الرواية تتكلم عن معاناتها عندما كانت طفلة ، والتمييز العنصري الذي لقيته من والدتها قبل المجتمع، وعندما يعنون الفصل بـ (برايد) ، تتكلم البطلة عن حياتها الجديدة التي صنعتها بعد تغيير اسمها. تبدأ الرواية بسرد الأم (سويتنس) وصدمتها بولادة ابنتها السوداء فتقول: لم يمض وقت طويل فـ ((سحبوا الطفلة من بين رجلي لأعرف أن هناك خطأ ما ، خطأ جدا. كانت سوداء جدا لدرجة أرعبتني، سوداء مثل منتصف الليل ، سوداء مثل سودانية)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 3). نرى أن الأم كانت تعاني من عقدة اللون الأبيض، فتضيف (سويتنس) مستغربة: ((كنت من النوع الذي نسميه خلاسية ، وكذلك كان والد لولاآن . ليس هناك احد في عائلتي له بشرة بهذا اللون . أظن أن لون القطران هو الأقرب ، قد تظن أنها وراثة راجعة ، لكن لمن؟)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 3) . تشرح الأم (سويتنس) ، كيف أن هذا التمييز العنصري لدرجات اللون الأسود داخل العرق الواحد ليس أمرا سيئا، فله أسبابه المؤلمة: ((قد يظن بعضكم أنه من السيء أن نجمع أنفسنا في مجموعات بحسب لون البشرة - كلما كانت أفتح كان ذلك أفضل _ في النوادي الاجتماعية وفي المناطق السكنية والكنائس والنوادي النسائية وحتى في مدارس الملونين. ولكن كيف يمكننا أن نحتفظ بشيء من الكرامة إذن ؟ كيف يمكن أن تتفادى أن يُبصق عليك في الصيدلية، والتدافع بالمرافق في موقف الحافلة، والمشي على قنوات الصرف ليحظى البيض بكل الرصيف ، ودفع خمسة سنتات في البقالة مقابل كيس الورق الذي يقدم مجانا للمتسوقين البيض؟ ناهيك عن الشتائم. سمعت عن هذا كله وأكثر ، أكثر بكثير)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 4). نلاحظ من كلام الأم ارتباط النسق الثقافي للعرق الأسود بالدونية في المجتمع الأمريكي على الرغم من وصولنا لتسعينيات القرن العشرين، فليس بإمكان الأسود أن يحتفظ بكرامته في مجتمع يحتقره، ويمقته . فأصبح هناك تعارض بين النسق الثقافي للعرق، والنسق الثقافي للكرامة، فالنسق الثقافي للعرق يعني اثبات الهوية التي امتاز بها عن الآخرين، واثبات الهوية الإنسانية العامة هو ما يمنح الانسان حق الكرامة وحفظها ، وهذا هو النسق الثقافي للكرامة . لكن ما يحصل للعرق الأسود هو العكس تماما ، فمحاولة اثبات الهوية العرقية للأسود تقوده إلى هدر الكرامة ، وسلبها ، فالنسقان يتصارعان والغلبة دائما للنسق الأول على الثاني ، ولا يمكن الجمع بينهما مطلقا ، فـ(ما دمت أسود فانت عديم الكرامة). وهذا ما دعا الأم إلى التنكر لأصولها الافريقية، كما فعلت والدتها من قبل ، مستغلين لون بشرتهم الفاتح (خلاسيين) ، ليحضوا بالكرامة التي ستسلب منهم في أي لحظة إذا اكتشفت أصولهم الأفريقية، فتخبرنا الأم كيف استطاعت هي وعائلتها تحاشي كل المعاناة التي يمرّ بها السود في المجتمع الأمريكي ؛ بسبب لون بشرتهم الفاتح: ((بسبب بشرة لون أمي لم يمنعها أحد من تجربة القبعات في المتاجر أو استخدام حمامات السيدات فيها، وتمكن أبي من تجربة الحذاء في القسم الأمامي من المتجر الأحذية ، وليس في الغرفة الخلفية ، ولم يكن أحدهما ليسمح لنفسه بالشرب من صنبور المياه المخصص « للملونين فقط « حتى لو مات ظمأً)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 5) . فنرى أن عائلتها حاولت جاهدة اخفاء أصولهم الافريقية لئلا يفتضح أمرهم بدليل

قولها ((ولم يكن أحدهما ليسمح لنفسه بالشرب من صنبور المياه المخصص « للملونين فقط « حتى لو مات ظمأً)). كما أنهم كانوا بالفعل يرون أنفسهم أعلى منزلة من الزنجي الخالص السواد كما سنرى لاحقا. نستشف من حديث الام تجليات مفهوم العرق وحدوده الضيقة التي لا تسمح لهم بالحركة إلا في حدود ضيقة . والاعتراف بهذه القيود، وتوقعها هو من مميزات الرواية الزنجية الأمريكية.

ومن الغريب أن نجد التمييز العنصري بين السود أنفسهم؛ لاختلاف درجات اللون الأسود لبشرتهم، فهو لا يقل عن التمييز العنصري الذي يتلقونه من البيض، مما اضطر الكثير من الأمهات الأفروأمريكيات إلى التخلي عن أولادهن، إذا ما ولدو بلون مختلف عن لون بشرة الأم – كما سنرى في الروايات – لأسباب مختلفة أهمها هامشية الأسود، ومركزية الأبيض باختلاف أنواعها ومجالاتها التي جعلت الأسود يعاني من التمييز العنصري في مجتمع البيض، فحاول الأسود أن يكون أبيض طمعا منه في التخلص من الصورة التي رسمها له الأبيض وبرمجها له لقرون من الزمن. مما جعل قسما منهم يتنصلون من أصولهم الافريقية ، كما رأينا مع الأم (سويتنس) وعائلتها ، وكذلك جدتها التي تنكرت حتى لأولادها ؛ لما يقدمه لهم اللون الفاتح من الامتيازات في مجتمع البيض ، فكان لديهم في اللاوعي عقدة اللون الأبيض. فتخبرنا (سويتنس) كيف أنها فكرت بقتل ابنتها بعد ولادتها مباشرة فتخبرنا : ((أكره قول ذلك، لكن منذ البداية في جناح الولادة أحرجتني الطفلة (لولاآن) ،(...) وظننت أنني سأجن حين رأيتها تتحول إلى الأسود المزرق أمام عيني . أعرف أني كنت مجنونة لدقيقة ذات مرة لأني وضعت بطانية على وجهها وضغطتها _ لثوان قليلة فقط _ لكني لم أستطع فعل ذلك رغم أنني تمنيت لو أنها لم تولد بهذا اللون الرهيب ، وفكرت أيضا بتركها في ملجأ الأيتام في مكان ما ، وكنت خائفة أن اكون إحدى أولئك الأمهات اللاتي يتركن أولادهن على عتبات الكنيسة)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 4). أن التفكير بقتل الطفلة، ومحاولة ذلك ولو لثواني معدودة، يذكرنا بالنسق الثقافي المشوه للأمومة في التاريخ القديم ، على يد وبفعل النسق الثقافي المتعالي الحاكم للسلطة التي يمثلها الرجل الأبيض، مع اختلاف الدافع إلى ذلك في الحالتين ، فهناك في التاريخ القديم والمرير لتجربة الإنسان الأسود مع الرجل الأبيض ، دفعت الأم دفعا إلى قتل أبنائها ؛ حرصا منها على أن لا يعيشوا تجربتها المريرة في العبودية تحت سلطة الرجل الأبيض ، لكننا هنا نشهد تحولا براغماتيا نفعيا للنسق الثقافي للأمومة بفعل ضغط الخطاب والممارسة العنصرية للرجل الأبيض. الأم هنا لا تريد أن تعاني هي أولا قبل طفلتها من تبعات لون بشرة هذه الطفلة ، وتبحث لها عن مخرج من هذه (الورطة) التي وجدت نفسها فيها على حين غفلة. كما نلاحظ في النص السابق تفوق خطاب الرجل الأبيض المؤدلج لخدمة مصالحه، فخطاب المركز يطغى ويحتل فكر ومعتقد الآخر، الأسود التابع، والمهمش الذي يعيش حالة من غسل الادمغة، فيصدق أن عليه أن يسلخ جلده بأي طريقة كي ينال جواز المرور إلى عالم الرجل الأبيض بكل امتيازاته السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية. وتخبرنا الأم(سويتنس) كيف أنها لم تتقبل فكرة ارضاع ابنتها ((أن إرضاعها بالنسبة لي كان كما لو أن زنجيا صغيرا يمص حلمتي ، فقررت التحول إلى الرضاعة الصناعية)) (Morrison, God help the

child, 2015, p. 5). وكانت هذه ثاني حالة اضطهاد تتعرض لها الطفلة (لولاآن) بعد محاولة خنقها من والدتها وهي لا تزال في أولى ساعتها خارج رحم أمها، ونلاحظ تعالي الأم بلونها الخلاسي على الزنجي الخالص السواد ، وتراه آخرا مختلفا عنها ولو بدرجة السواد وكذلك زوجها . إذ تبين لنا (سويتنس) كيف أن المصائب بدأت تحل على رأسها بسبب هذه الطفلة السوداء ، فالمصيبة الأولى هي هجر زوجها لها بعد أن قضيا ثلاث سنوات طيبة معا. فتقول: ((حين ولدت وجه إلي اللوم وعامل لولاآن كما لو أنها غريبة ، وأكثر من ذلك ، كما لو كانت عدوا . لم يمسسها أبدا ، ولم أحاول إقناعه أنني لم أعبث أبدا مع أي رجل آخر ، لكنه واثق أنني أكذب ، تجادلنا وتجادلنا إلى أن أخبرته أنها ورثت سوادها من عائلته هو لا عائلتي)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 6) . نلاحظ هنا تحول السواد إلى تهمة و جريمة يتقاذفها كل من الام والأب ، ويرمي بها نحو الآخر. وبعد هجر زوجها كان عليها أن تبحث عن منزل أرخص، وأن تعيش وحيدة مع ابنتها ، لكن (سويتنس) تخبرنا أن كل الخلاسيين والمهجنين يفعلون ذلك. فتروي لنا كيف أن جدتها التي تملك بشرة فاتحة جدا رفضت التواصل مع أبنائها لأنهم كانوا خلاسيين، وهي أقرب إلى البياض ، فتروي : ((جدتي كانت كأنها بيضاء ولم تعد تتحدث إلى أبنائها ، وتعيد أي رسالة تتلقاها من أمي وخالاتي دون فتحها. وأخيرا فهمن الرسالة دون رسالة وتركنها وشأنها. كل الخلاسيين والمهجنين فعلوا ذلك في ماضيهم تقريبا)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 3). وتخبرنا (سويتنس) أن لك ((أن تتخيل كم من البيض تجري في عروقهم الدماء الزنجية وتختبئ بها ؟ خمن ،عشرون بالمئة)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 3) . إذن تحت نسق البياض الظاهر هناك نسق سواد مضمر خفي قد أي يظهر في أي لحظة فتفقد العائلة كل امتيازاتها التي تمتعت بها بانتسابها إلى العرق الأبيض ، كما حدث مع الأم (سويتنس) . وتستمر الأم في سرد معاناتها والمشاكل التي أحاطت بها بسبب لون ابنتها الشديد السواد ، فكان عليها أن تبحث عن منزل أرخص بعد هجر زوجها ((وليس عليّ أن أصف لك كم هو قاس أن أكون زوجة مهجورة)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 6) . و كانت لا تستطيع أخذ الطفلة معها للبحث عن منزل ، فعلى الرغم من أن ولادة (لولاآن) كان في التسعينيات و((كان القانون يحظر ممارسة التمييز العنصري في تأجير المنازل ، لم يكن كثير من المالكين يعيرونه اهتماما ، كانوا يختلقون الاعذار لطردك ، لكني كنت محظوظة مع السيد لي . أعرف انه زاد الايجار سبعة دولارات عما كتبه في الإعلان ، وأنه يصاب بالجنون لو تأخرت دقيقة في سداد الإيجار)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 6) . فالتمييز العنصري لا يزال ساري حتى اللحظة على الرغم من كل القوانين التي تحظره . فكانت نادرا ما تخرج مع الطفلة ؛ لتتجنب صدمة الأصدقاء والغرباء لأنهم سـ((يصابون بالذعر ويقفزون إلى الوراء متجهمين. هذا مؤلم. كان من الممكن أن أكون أنا جليسة الأطفال لو كانت بشرتانا بالعكس (...) بخاصة حين ينظرون إلى (لولاآن) ثم إلي كما لو أنني كنت أخدعهم أو شيء من هذا القبيل)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 7) . نرى أن الأم كانت فعلا تخدعهم بادعائها الانتماء إلى العرق الأبيض، وتنكرها لكل ما يمت بصلة لعرقها الأسود، متخفية خلف لونها

الفاتح، حتى فضحتها طفلتها بلون بشرتها الأسود القاتم. كما نرى مدى معاناة الأم كونها تعيش وسط مجتمع البيض ، هذه المعاناة جعلتها تصب غضبها على طفلتها المسكينة فكانت تمنعها من قول ماما ((طلبت منها أن تناديني « سويتنس» بدلا من أمي أو ماما ، لقد كان ذلك أكثر أمانا . فأن تكون بهذا السواد ولها شفتان أراهما غليظتين جدا وتناديني ماما سيشوش الناس ، بالإضافة إلى أن لون عينيها عجيب ، سوداء كالغراب بمسحة من الزرقة ، كان فيهما شيء غامض جدا)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 6) – نلاحظ أن منع طفلتها من مناداتها بـ (ماما) لتكون بأمان أكثر، يشير إلى تعارض نسق السواد مع نسق الأمان في المجتمع الامريكي- كما عاملتها بقسوة، فتسرد لنا كيف كانت ((حذرة جدا في تربيتها، علي أن أكون صارمة ، صارمة جدا. كانت (لولاآن) بحاجة لتتعلم كيف تحسن السلوك ، وكيف تبقي رأسها منخفضا ولا تتورط في المشاكل ،(...) فقد كان لونها صليبا عليها حمله دوما. لكن ذلك ليس خطئي، ليس خطئي ، ليس خطئي، ليس كذلك)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 7). ونلاحظ مدى التمثيل الايجابي للراوي المشارك(الأم) ، فنراه يبرر قساوة الأم (سويتنس) مع ابنتها ، ونشعر بتضامنه معها ، على الرغم من عدم وجود أي مبرر لتزدري ابنتها بهذه الطريقة وتعاملها بهذه القسوة ، فلا دخل لها في لون بشرتها، فكانت حتى لا تستطيع لمسها. وعندما تتولى (لولاآن) السرد تخبرنا عن مدى معاناتها وآلامها مع والدتها، فقد عاشت محرومة من حنان الأم على الرغم من وجودهما معا، مما اضطر الطفلة (لولاآن) البالغة من العمر ثماني سنوات، إلى أن تشهد زورا أمام المحكمة، بأن معلمتها كانت تتحرش بالأطفال،(حينما اتهم بعض الأشخاص المعلمة بالتحرش، وطلبت المحكمة شهادة أطفال المدرسة) مما أدى إلى دخول المعلمة السجن والحكم عليها بخمسة وعشرين عاما ؛ مقابل أن تحصل على كلمة طيبة ، أو لمسة حنان من والدتها. وبقيت طوال تلك السنوات تشعر بعقدة بالذنب ، حتى أنها زارت المعلمة بعد خروجها من السجن ، وكان لقاء داميا كادت أن تخسر حياتها. فتعترف (لولاآن) قائلة : ((لقد كذبت ! لقد كذبت ! لقد كانت بريئة . ساعدت على ادانتها لكنها لم تفعل شيئا من ذلك . أردت أن أصلح الأمر لكنها ضربتني حتى الموت وأستحق ذلك)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 153). فيرد عليها حبيبها ((- كذبت من أجل أي شيء بحق الجحيم ؟

– لتمسك أمي بيدي .

– ماذا ؟

– وتنظر إلي بعينين فخورتين، ولو لمرة

– وهل فعلت إذن ؟

نعم لقد أحبتني أيضا)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 153). ، فبعد شهادتها في المحكمة تخبرنا بمدى احترام كل من في المحكمة لها، والاهم من ذلك موقف والدتها، ((نظرت إلى سويتنس، كانت تبتسم كما لم أرها من قبل ، تبتسم بشفتيها وعينيها ، ولم يكن ذلك كل شيء (...) حين كنا ننزل درج المحكمة أمسكت بيدي ، يدي ، لم تفعل ذلك قبلا أبدا وأدهشني ذلك بقدر ما أسعدني لأني كنت أعرف دوما أنها لا تحب لمسي. يمكنني أن أقول ذلك)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 153) ، وتسرد (لولاآن) كم كانت بحاجة للمسة من والدتها، حتى لو كانت عن طريق ضربها ؛ لأنها كانت دائما تشعرها بالقرف بسبب

لون بشرتها، فتضيف ((كان النفور يعلو وجهها حين كنت صغيرة وكان عليها أن تحممني وتغسلني بعد أن تدعكني_ بفتور _ بمنشفة مغطاة بالصابون . اعتدت أن أدعو لتلطم وجهي أو تصفعني لأشعر بلمستها فقط ، كنت أتعمد ارتكاب الأخطاء لكن كان لديها طرق لمعاقبتي دون أن تمس بشرتي التي تكرهها، النوم دون عشاء ، حبسي في الغرفة ، لكن صراخها عليّ كان الأسوأ)) (Morrison, God help the child, 2015, p. 31) . نرى أن الأم كانت تعاني في اللاوعي من عقدة اللون الأبيض ، على الرغم من أنها كانت خلاسية ، ولحظة صدمتها بسواد ابنتها ترجمت هذه العقدة بمعاملتها القاسية لها . وأخيرا نرى أن تمثيل الراوي للسود في هذه الرواية تمثيلا ايجابيا ، بل وأكثر راح يتعاطف مع الأم ويبرر قساوتها على ابنتها . و سنرى هذا التعاطف أيضا من الراوي مع الأم التي تخلت عن ابنتها بسبب لون بشرتها في رواية (عاملة المنزل) لكاثرين ستوكيت Kathryn Stockett (The Help).

ففي رواية عاملة المنزل (The Help) قدمت لنا المؤلفة صورة معاكسة للتي رأيناها في الرواية السابقة لـ (Toni Morrison) ، إذ كانت الأم خادمة سوداء البشرة تدعى (كونستنتين) تتخلى عن ابنتها البيضاء للأسباب السابقة نفسها التي مرت بنا في رواية (Toni Morrison)، في الوقت الذي تقوم فيه بالعمل في منازل البيض وتربية أطفالهم . فتخبر الخادمة السوداء (آيبيلين) الصحفية قصة (كونستنتين) التي قامت بالعمل في منزلهم لتسعة وعشرين عاما ، ثم طردت بسبب ابنتها بيضاء البشرة، التي جاءت تبحث عن والدتها بعد خمسة وعشرون عاما. كانت (كونستنتين)، هي من قامت بتربية الصحفية وتعلقت كل منهما بالأخرى. ونرى مدى تعاطف الراوي مع (كونستنتين) ، عبر عرضه للمحاورة بين (آيبيلين) والصحفية ((عندما كانت لولابيل في الرابعة من عمرها أخذتها كونستنتين (...) إلى ميتم في شيكاغو.

– ميتم ؟ تعنين ... تخلت عن طفلتها ؟ كان في استطاعتي أن أتخيل مدى حب كونستنتين لطفلتها الوحيدة لأنها كانت تحبني كثيرا . (...)

– تخلت كثير من النساء ملونات البشرة عن أطفالهن ، يا أنسة سكيتير. كن يتخلّين عن أطفالهن للعمل لدى عائلات البيض .

– لماذا لم ترسل الطفلة لشقيقتها؟ أو لنسيبة أخرى؟

– لم يكن في استطاعة شقيقتها ... التعاطي مع الوضع . أن تكون زنجية ببشرة بيضاء ... في الميسيسيبي ، هو أشبه بعدم انتماء إلى أحد)) (Stock-ett, 2009, p. 421) نلاحظ أن فضاء (الميسيسيبي) الخاص بالملونين هو الآخر لا يسمح باختراقه من لدن البيض ، حتى وإن كانوا من أب أو أم زنجية . وتواصل كلامها قائلة : ((ولكن الأمر لم يكن صعبا على الفتاة فحسب ، بل على كونستنتين أيضا . لقد خشيت ... من أن يراها ذوو البشرة البيضاء فيوقفوها ويسألوها عما تفعله مع طفلة بيضاء . لقد اعتاد رجل الشرطة إيقافها في شارع ستيت ، والقول لها إن عليها ارتداء لباسها الرسمي الابيض. حتى أن ملوني البشرة ... كان يعاملونها بشكل مختلف وبارتياب ، كما لو أنها ارتكبت عملا غير صحيح . لم تستطع إيجاد من يهتم للولابيل في أثناء دوام عملها. لقد ذهبت كونستنتين إلى المكان الذي لا يكون عليها فيه إخراج ...لولا كثيرا .(...)

– هل كان ميتما لملوني البشرة أو لذوي البشرة البيضاء ؟

لملوني البشرة . لم يشأ مدراء مياتم ذوي البشرة البيضاء تسلمها ، كما سمعت ، لأنهم كانوا يعلمون كما أظن ... ربما مرّت عليهم حالات مماثلة . عندما ذهبت كونستنتين مع لولابيل إلى محطة القطار لاصطحابها إلى هناك ، سمعت أن أشخاصا من ذوي البشرة البيضاء كانوا على الرصيف يحدقون ، بانتظار معرفة سبب وجود فتاة بيضاء البشرة في سيارة يوجد فيها ملونو البشرة . وعندما أودعتها كوستنتين ذلك الميتم في شيكاغو .. لم تتقبل ابنتها الأمر لأنها كانت في الرابعة من العمر ، وبدأت بالصراخ . هذا ما قالته كوستنتين (...) كانت تصرخ وتقاوم ، محاولة حمل والدتها على العودة إليها . ولكم تركتها هناك ...بالرغم من قساوة الأمر عليها)) (Stockett, 2009, pp. 421-422) . نرى (كوستنتين) تتخلى عن ابنتها بسبب التمييز العنصري من المجتمع الذي تعيش فيه ، سواء كان من مجتمع البيض أم السود، ففي مجتمع البيض تكون الأم في موضع الشك والريبة في أنها قد خطفت الطفلة ، ودوما تتعرض للمساءلة من قبل الشرطة ، والأمر نفسه في مجتمع السود ، فقد كانت أيضا في موضع الشك والريبة ، فبياض بشرة ابنتها على الرغم من أن زوجها أسود البشرة ، يشي بخيانتها لزوجها. لذا تخلت عنها بسبب خجلها من لون بشرتها البيضاء . وقد ندمت كثيرا على فعلتها بحسب قول صديقتها (آيبيلين): كانت ((تقول على الدوام إنها ارتكبت أسوأ خطأ في حياتها)) (Stockett, 2009, p. 423) . فقد نالت كل من الأم والابنة نصيبهما من المعاناة لسنوات طويلة .

أما **الروايات العربية** المعاصرة فقد تناولت عقدة اللون أيضا ، إذ أن الشخصيات من ذوي البشرة السوداء عانوا من عقدة اللون الأبيض، وتمنوا لو لم يكونوا من ذوي البشرة السوداء . وهذا أمر له مبرراته الواضحة، وهو التمييز العنصري الذي يتلقونه من المجتمع الذي يكون فيه ذوي البشرة السوداء أقلية . لكن المفارقة تكمن في أن هذا التمييز العنصري تجاه ذوي البشرة السوداء موجودا داخل السودان ، الذين ينتمون إلى عرق واحد ، ففي السودان على الرغم من أن المجتمع من ذوي البشرة السوداء ، إلا أن الأشخاص الأكثر سوادا يعانون من التمييز العنصري ، وينظر إليهم بدونية

وهذا ما سنعرفه من رواية (بابَنوس) لسميحة خريس ، إذ تدور أحداث الرواية في مكان متخيل ، وهي قرية فقيرة جدا في اقليم دارفور السوداني في ستينيات القرن العشرين ، إذ تتناول الرواية الصراع السياسي في هذا الاقليم والمتمزق بين فقر الطبيعة، والصراع على الطعام والماء، لتتحول هذه الصراعات إلى حرب مسلحة، ترتفع فيها حدة التوترات العرقية والتصنيفات اللونية ، فيتدخل الغرب لحماية مصالحه وأطماعه . والذي يعنينا في هذه الرواية هو التمييز العنصري لتدرجات اللون الأسود داخل السودان. إذ تقسم الرواية إلى تسعة فصول، تحمل الفصول السبعة الأولى أسماء الشخصيات الرئيسة في الرواية ، ويكون الحديث في كل فصل على لسان أحد هذه الشخصيات ، فتكون الفصول أشبه باعترافات ، ولا تكتمل سيرة أحد إلا باكتمال الفصول ؛ لأن كل شخصية منها تضيء جوانب مخفية من الشخصيات الأخرى، غفلوا عنها أو تناسوها عن عمد. أما الفصلان الأخيران فيتولى زمام السرد فيهما راو عليم بكل شيء يمضي بالرواية إلى مبتغاها .

تسرد الفصل الأول من الرواية (الحكامة)

وهي كبيرة القرية ومستشارتها، فتخبرنا عن كيفية تصنيف أبناء قريتها بحسب لون بشرتهم فتقول: ((يجري تصنيفنا إلى زرق وخضر وحمر)) (خريس، 2014، صفحة 32). لنتفاجأ بأن داخل السودان لديهم تقسيمات مختلفة للألوان بشرتهم، إذ لا يطلقون كلمة أسود على أي شخص بل هناك أطياف عدة للون البشرة الأسود ، ولكل طيف امتيازات ، تفاضل ، وعنصرية داخل المجتمع السوداني. وأرقاهم منزلة هو السوداني شديد البياض ويسمى (أحمر) كناية عن اكتساب بياضه حمرة يمتاز بها الشخص شديد بياض البشرة ، ويدعى أحيانا بـ (الحلبي)، نسبة لجاليات سورية قد هاجرت قديما إلى السودان . فيعم الوصف وإن اختلف الأصل . ثم يأتي السوداني (الأصفر)، وهو من تشرب بياضه ببعض الصفار، كلون أغلب أهل الخليج ، ويحمل هذا اللون امتيازات اللون الأبيض المعهودة عالميا ، والصورة المثلى للجمال ، مع امتياز إضافي عن (الحلبي)؛ لافتراض ضمان نقاء الأصل السوداني فيه . ثم يأتي اللون الخمري أو القمحي ، وهو أول أطياف السمار وما راق منه . وتزيد صبغة الميلانين ، فيأتي الشخص (الأخضر) ، إذ يقال في وصف إحداهن بأن (خضرتها رويانة)، بمعنى ان بشرتها السمراء نضرة ، أسوة بالثمار إذا ارتوت ونضرت. ثم أخير يأتي الشخص (الأزرق) وهو الأدنى منزلة ، ويطلق على الشخص حالك السواد، كليل فان جوخ[1] الذي اكتسبت سماؤه زرقة، ويقع على هذا الطيف ما يقع على الأسود حول العالم (البشير). حتى أنهم يطلقون على نهر النيل اسم (النيل الأزرق) ويعنون به الأسود (خريس، 2014، صفحة 64).

إذن فالتمييز العنصري موجود حتى داخل العرق الواحد في السودان. ((فأهل شمال النيل من العرب ينكرون على نحو غريب لون بشرتهم الأسود فيرونه أخضر، ويعدون أنفسهم أرقى عرقيّا بحكم انتمائهم إلى عرق شريف هو العرق العربي. وبالمقابل تشتغل مخيلتهم فتبني جغرافية عرقية تكون بمقتضاها الأعراق الأخرى غير شريفة لأنها من «عرق العبيد» وسوداء البشرة)) (أشغال ملتقى تونس للرواية العربية الدورة الثانية، 2021، صفحة 12). وهذا المثال يقدم دليلا على اضطهاد السود للسود بالاستناد إلى شبكة من المعايير الرمزية ذات أبعاد ثقافية، واجتماعية، واقتصادية، وإلى النسق الثقافي للسواد، ومعانيه ، وتدرجاته في تلك المجتمعات. نعود إلى الرواية، لنستمع إلى (الحكامة) وهي تروي لنا كيف أن الطفلة (بابنوس) ولدت ((مخلطة بين بياض أمها وزرقة أبيها)) (خريس، 2014، صفحة 26)، فورثت الطفلة زرقة أبيها فاطلقوا عليها (بابنوس)، وهو مأخوذ من اسم شجر الأبنوس الذي يكون له لحاء شديدة السواد، فيحولها تجار التحف إلى منحوتات إفريقية سوداء تمثل المحاربين ،وحيوانات الغابة (أشغال ملتقى تونس للرواية العربية الدورة الثانية، 2021، صفحة 25). وفي فصل آخر تسرد لنا (بابنوس)، كيف عاشت وحيدة بسبب زرقتها (سوادها)، فتخبرنا: ((أني زرقاء وأبي أزرق)) (خريس، 2014، صفحة 47). حتى أن والدتها البيضاء لم تمنحا أي عاطفة فتروي (بابنوس) عن والدتها: ((أنا وحيدتها ، درتها الفريدة التي لا

(1) فينسنت فان جوخ: رسام هولندي انطباعي عاش في القرن التاسع عشر ، رسم لوحة عن ليل مدينة سان ريمي دو بروفنس وهو في المستشفى عام 1889 م ، وكان الليل شديد الزرقة ، وتوجد في متحف نيويورك وهي من أشهر لوحاته . مسبار :
www.missbar.com

تمنحها العطف ، ما عرفت العطف إلا في لمسات الجدة الحبوبة الحكامة)) (خريس، 2014، صفحة 43) ، فقد عانت (بابنوس) من جفاء والدتها معها كما عانت (لولاآن) مع والدتها في رواية (ليكن الرب في عون الطفلة)، لأن والدتهما كانتا من ذوي البشرة البيضاء ، وكلتاهما عانت من عقدة اللون الأبيض. ونرى أن شدة سواد (بابنوس) لم تزعجها فلم تكن تشعر بعقدة اللون، بل أن والدتها البيضاء هي من تعاني من هذه العقدة ، مما أدى إلى اهمالها لأبنتها الوحيدة ، فتروي (بابنوس) ((عتمة جلدي لم تحرجني، وإن أحرجتني النكات والتعليقات البذيئة)) (خريس، 2014، صفحة 55) فكانت تفخر بلونها فتقول : خرجت من رحم أمي على هيأة أبي ((سوداء لامعة صلبة منتصبة)) (خريس، 2014، صفحة 55) كشجرة الأبنوس. ونلاحظ في كلا الروايتين أن عقدة اللون كانت موجودة لدى الأم البيضاء ، وليس لدى الطفلتين اللتين مثلتا تمثيلهم الذاتي الصحيح ، فقد فخرا بلونهما وحققا ذاتهما على الرغم من المعاناة التي مرتا بها. نعود إلى الحكامة ونسمعها وهي تصف شابا وسيما، فتقول: ((شفته شاب مليح أخضر (...) كان كامل مكمل)) (خريس، 2014، صفحة 70). أي أسمر اللون. ويخبرنا (باسالم) اليمني، بعد أن عاش مدة في السودان كيف أنه مستغرب التمييز العنصري تجاه الالوان في السودان فيقول: ((ترتفع وتيرة التوتر العرقي ، والتصنيفات المتعلقة باللون ، وما كنت أظن قبل قدومي إلى أفريقيا أن هناك تباينا ، ولكني تعلمت على مهل التمايزات السلالية التي تنصهر وتندمج ثم تتفكك وتتخالف حد الصراع ، (...) تذهب كل فئة للحديث المضحك عن صفاء العرق والسلالة ، وما رأيت إلا نسيجا متداخلا لا يمكن القطع بشأنه ، حتى الذين يظنون أنفسهم عربا للسانهم أو تاريخهم الذي يجمعهم بالعرب، دمغهم لون افريقيا بنسب متفاوتة ؛ وفق شدة الاختلاط بالأقوام الأخرى)) (خريس، 2014، صفحة 210). فالنسبة لشاب يمني من خارج افريقيا وجد صعوبة في التمييز بين درجات ألوانهم وتمايزها إلا بعد أن قضى معهم مدة من الزمن، مما يعني أن الحيث المضحك فيما بينهم يشير إلى أنهم يوهمون أنفسهم بصفاء أعراقهم، وسلالاتهم . وما تمايز ، وتعالي كل واحدة من هذه السلالات على غيرها من السلالات التي تحمل درجات أخرى مختلفة من السواد مع أنها تشاطرها الحياة والوطن، إلا حرصا منها على تأكيد درجة التواصل مع الآخر الأبيض عبر خفة درجة السواد ، وعدم قتامته، وهو تعبير عن عقدة اللون الأبيض التي يعانيها هؤلاء .

وفي رواية (لأني أسود) لسعداء الدعاس ، نجد أن (جمال) كان يعاني من عقدة اللون ، وتمنى أن لم يولد أسود البشرة فيخبرنا: ((أتساءل دائما لماذا انا اسود؟ لماذا أنا بالذات .. وليس أنت؟ (...) فأنت تجهل معنى أن تكون اسود .. معنى أن يكون لونك مصدرا لإهانتك! معنى أن تحمل هوية لونية منذ ميلادك حتى الممات . هوية تتقن تعريتك .. تحدد انتماءك قبل أن تصرح به .. تُسبغ عليك الإجرام قبل أن تقترفه .. توصمك بالفقر قبل أن تبتلى به .. هذه هويتي هل تقبل بها أنت ..؟ هل تقبل أن تكبل حياتك في أحياء لا يسكنها غيرك ؟! هل تقبل أن تُقنن مشاعرك بنساء لا يخرجن عن حدود هويتك ؟! هل تقبل أن تعيش يومك رهن حماقات ونكات تتلذذ بصفعك ؟! هل تقبل أن تُعرف بـ «العبد» ؟!)) (الدعاس، 2010، صفحة 3). عبر

السرد يتبين لنا آلام (جمال)، وعقدة اللون الأبيض لديه التي أخذت تكبر معه كلما كبر. فالنسق الثقافي للسواد عند (جمال) الذي هو عينه عند جماعات السود هو

1. مصدر للإهانة (تهميش).
2. تبرير للتعرية النفسية (طمس الهوية).
3. الحكم المسبق على الهوية (قمع اجتماعي).
4. الادانة الدائمة بالإجرام ، وارتكاب المحرمات .
5. انك فقير حتى لو لم تكن كذلك (قمع اقتصادي).
6. أن تعيش في أحياء لا يسكنها غيرك(عزل ، واغتراب مكاني) .
7. أن لا ترضى بك أي امرأة بيضاء (قمع عاطفي).
8. أن تكون رهنا للسخرية، والتندر، والحماقات (تهميش وقمع قيمي للإنسان).

– إنك (عبد) ، إنك محبوس داخل سجن دائم مع كل هذه القيود ، والاتهامات.

ويخبرنا (جمال) أن هذه العقدة بدأت معه منذ أن بدأ يعي الحياة ، فعند التحاقه بمرحلة رياض الأطفال، سأله أحد الأطفال: ((لماذا لا تستحم؟ لم يجدي معه تأكيدي على استحمامي اليومي ، راح يكرر سؤاله (...) عدت إلى المنزل ..اتجهت إلى الحمام .. بدأت نزع ثيابي وعقلي يكرر « لا بد أن أصبح نظيفا»)) (الدعاس، 2010، صفحة 3). نلاحظ أن النسق الثقافي للسواد عند الأبيض يعني وساخة، وقذارة الجسد، فيقابل برد فعل هو الاستحمام ، وتنظيف الجسد، فيخبرنا (جمال) : ((... قضيت ثلاث ساعات أستحم .. وكلما نظرت في المرآة عرفت أنني أحتاج لأيام عديدة لأصبح نظيفا!)) (الدعاس، 2010، صفحة 108). لكن لا الحمام ولا الاستحمام يمكن أن يغسل عقل (جمال) من شوائب عقدة اللون الأبيض. كما يخبرنا:(جمال) كيف أن الأمهات يتوسلن الله أن يكون أطفالهم أقل سوادا ((تشكل النطفة الأولى كارثة أمهاتنا ... كلهن يتوسلن تلك الانتفاخات الرحمية أن « كوني أقل سوادا أرجوك « ... لم يرغبن بأطفال بيض قط .. فلا أمقت من طفل أبيض شاحب يتجول كـ (كاسبر) في حي أسود ، ولا أسوأ من سمعة امرأة سوداء تعاشر رجلا أبيض)) (الدعاس، 2010، صفحة 7). نلاحظ أن قول (جمال) «لم يرغبن بأطفال بيض قط» يعني أن النسق الثقافي للسواد يمتلك هو الآخر أسوارا حصينة يحتمي وراءها من أي اختراق ، فلا يسمح ضمن منظومة المجتمع الأسود بأي اختراق من منظومة المجتمع الأبيض ، ولو بطريق الصدفة أو الخطأ ، فمنظومة المجتمع الأسود تمارس طقوس العزل ، والقمع ، والتهميش ذاتها التي تمارسها منظومة المجتمع الأبيض على ذلك الدخيل الغريب الأسود إذا ما دخل إليها. ولأن المرأة هي دائما من يحمل الوزر الأكبر عما ينتج رحمها، فعليها أن تتوقع أبشع تهمة تتلقاها المرأة في المجتمعات الشرقية الذكورية وهي الطعن في شرفها إن أنتج رحمها طفلا أبيض أو مائلا إلى البياض بدرجة واضحة . فالنسق الثقافي للأمومة يظل مهددا في المجتمع الأسود ، إذ تتمنى كل أم أن تكون نطفتها الأولى على الأقل أقل سوادا من غيرها من نطف الأخريات ، لا سيما إذا كان المولود بنتا، علها تنال حظا أوفر في الحياة والزواج.

وهذه النظرة إلى الأم السوداء هي التي دفعت (كوستنتين) للتخلي عن ابنتها في رواية (ليكن الرب في عون الطفلة) (God help the child). على

الرغم من اختلاف الثقافتين بين أمريكا والكويت ، ولكن معاناة السود تبدو واحدة في كل مكان من الكرة الارضية . ويكمل (جمال) ((كلهن يسعين لنطفة أقل سوادا فقط ... لإدراكهن أن السواد الداكن يشكل نعمة الانتماء لأم لم تبرح خارج حدود الحي .. لكنه يشكل نقمة الاختلاف لام جالت بعينيها أحياء أخرى ، ودواخل بشر تخشى لقاءهم ، ولا يسعون للقائها.(...) «كوني أقل سوادا أرجوك « بهذه الأمنية تهمس الامهات لنطفة السواد الأولى .. فالفتاة تحتاج دعوات مضاعفة بلا شك. لا أسعد حظا من انثى تخترق رحم أم سوداء ببشرة أقل سوادا . أن تكون الفتاة أقل سوادا .. يعني أنها ستحظى بشقاء أقل ... وفرص أكثر)) (الدعاس، 2010، الصفحات 8-7) . فنرى أن عقدة اللون الأبيض موجودة لدى النساء أيضا ، فهن يتمنين حياة افضل لمواليدهم. كما أن الفتيات يعانين من عقدة اللون فيخبرنا (جمال)، أن ((الفتاة الأقل سوادا، أوفر حظا من الأخريات ، فلن تقع فريسة كريمات التبييض .. ولن تقضي يومها تتعبد في محراب مصفف الشعر ، كما تردد الجدات «كلما ازداد سوادك كلما ازدادت تموجات شعرك». لن تقترن ملامحها بأصباغ فاقعة، لإبراز شفاه لا تتأطر حدودها في وجه داكن. الفتاة الأقل سوادا غالبا ما تغوي الشباب السود الذين يجدون فيها الاختلاف، والشباب البيض الذين يجدون فيها الاختلاف أيضا .» كوني أقل سوادا)) (الدعاس، 2010، صفحة 5). إذن (الأقل سوادا) نسق ثقافي وسط بين النسق الثقافي للسواد المطلق من جهة، والنسق الثقافي للبياض المطلق من جهة أخرى . الفتاة الأقل سوادا مرغوبة من الرجل الأسود، والأبيض على حد سواء ، وبهذا فهي محظوظة. ويؤكد قول (جمال) الصحفي السوداني الطيب مصطفى فيقول: أن محلات التجميل في السودان أو ((الكوافير التي تجتمع كلها على تعميق عقدة النقص والهزيمة النفسية لدى الإنسان السوداني وبتركيز أكبر على المرأة السودانية التي ترسخت في نفوس معظم بنات جنسها خاصة في المدن أن لونهن الذي خلقن به منقصة وعيب خلقي ينبغي أن يتخلصن منه بكريمات التجميل التي لو رصد ما يصرف عليها لربما تجاوز المليارات من الدولارات)) (مصطفى، 2015/ 10/ 28). كما كانت والدته (جوان) تشعر أيضا بعقدة اللون الأبيض فيخبرنا (جمال) أن والدته ((كانت تشعر دائما أنها أقل من أولئك الشقر ! «كيف أجرؤ على توثيق علاقتي بميليسا ؟ .. هي صورة عن الجمال الأمريكي ، وأنا صورة عن قبحه)) (الدعاس، 2010، صفحة 35). نلاحظ أن النسق الثقافي للسواد المطلق يعني قمعا اجتماعيا للذات في علاقتها بالآخر في المجتمع ، وإن كانت هذه الذات تملك وسائل تواصل أخرى مع المجتمع من قبيل التفوق العلمي أو الثقافي . فعقدة اللون الأبيض موجودة في نفوس كثيرة من ذوي البشرة السوداء ، وسبب هذه العقدة هو التمييز العنصري الذي يلقونه من البيض .

وفي رواية (البطريق أسود) لضياء جبيلي، نجد أن عقد اللون الأبيض التي طالت (جمال) في طفولته ، قد طالت (البطريق الأسود) أيضا. فنراه يخبر (د. خميس) والده بالتبني بحلمه الذي راوده يوما ((حلمت أن بشرتي تحولت إلى اللون الأبيض وشعري أصبح سبطا . كنت أنظر في المرآة حينها (...) ولم أصدق حينها، هناك في الحلم، أن هذا ما حدث حقا)) (جبيلي، 2021، صفحة 128). إذ كان يشعر بالإحراج والألم من تنمر أصدقائه عليه في المدرسة

فكانوا يطلقون عليه (البطريق أسود)؛ لعرجه و لونه . فيخبرنا أنه في أحد الأيام تذكر حلمه هذا وأراد تحقيقه ، فدخل المطبخ واستعمل النشأ وينقل لنا هذا المشهد المؤلم قائلا : ((تذكرت عندئذ حلمي وخطرت لي فكرة . كان من بقايا المكونات دقيق النشأ، أخذت قبضة وهرعت إلى المرآة المعلقة فوق المغسلة الخزفية تحت السلم في الهول ، بدأت ألطخ وجهي به وأتأمل شكلي الجديد)) (جبيلي، 2021، صفحة 129). وهذا المشهد يذكرنا بمشهد(جمال) حين اغتسل مرات عديدة ونظر في المرآة ليرى إن كان لونه قد تغير . فمعاناة الأطفال أكبر بكثير من معاناة الكبار ، لأنهم لا يدركون الأسباب وماذا فعلوا كي يتلقوا كل هذا التمييز العنصري .

الخاتمة :

1. إن الشخصية السوداء في الروايات المعاصرة الأمريكية والعربية كانت شخصيات تعاني من آلام نفسية حادة جراء التمييز العنصري الذي تتلقاه من مجتمع السود والبيض في آن واحد ، فضلا عن شعورها بعقدة اللون الابيض ، وأنها أقل منزلة من الأبيض ومن الاسود الأفتح لونا منها ، والقليل منهن من قامت بتحدي واقعها وتمثيل ذاتها التمثيل الصحيح على الرغم من قساوة المحيطين بها كما حصل مع (برايد) في رواية (ليكن الب في عون الطفلة *God help the child*).

2. إن الكُتاب من ذوي الأصول الافريقية كانوا الأقدر والأعمق في وصف تجاربهم الشخصية، من الكتاب الأمريكيين المهتمين بقضايا المهمشين، والأقليات، وذلك راجع إلى خصوصية التجربة التي مرّوا بها، مما جعلهم يفرطون في عرض معاناتهم، فنجد الروايات الافروأمريكية طويلة جدا يصل عدد صفحاتها إلى الألف صفحة تقريبا، فهي في مجملها روايات ضخمة، أما الروايات العربية التي تناولت قضايا السود فكانت لا تختلف في عدد صفحاتها عن أي موضوع آخر يتناوله الكُتاب العرب، فهي لا تتجاوز في عدد صفحاتها في الأغلب الأعم 250 صفحة .

وأخيرا نرى أن الروايات المعاصرة الأمريكية والعربية قد أسهمت في تأريخ جانب من مشاعر السود اتجاه ما عانوه وما يعانونه ، إلا أن مفردات الصورة التمثيلية السردية للسود قد تبلورت في:

– التغيير الكبير في تعامل السود مع اللون الأسود، فبدل حبهم واعتزازهم بسواد بشرتهم ، تحول إلى كره ، وامتعاض، ونفور، وتمني الأمهات أن يكون المولود أقل سوادا ، بل حتى محاولة قتله لشدة سواده ، كما في روايتي (God help the child)، و(لأني أسود).

– انتقال الشعور بالدونية الى مجتمع السود أنفسهم.

– محاولة تغيير الصورة النمطية السلبية المترسخة في الأذهان، وتقديم صورة ايجابية مشرقة عنهم كما رأينا مع شخصية (برايد) في رواية (God help the) وشخصية (جمال) في رواية لأني أسود .

– الإفاضة في عرض معاناتهم وآلامهم ومشاكلهم ومقدار اضطهادهم على مر التاريخ . وقد مرّ بنا ذلك كثيرا سواء في الروايات الأمريكية أو العربية.

المراجع

Morrison, T. (1993). *The Bluest eye.* New york : Vintage Books- penguin Random House LLC,.

Morrison, T. (2015). *God help the child.*

New york: Vintage Books- penguin Random House LLC.

Stockett, K. (2009). *The Help* . New york: penguin Random House LLC.

أشغال ملتقى تونس للرواية العربية الدورة الثانية. (2021). قضايا البشرة السوداء في الرواية. تونس: وزارة الشؤون الثقافية وبيت الرواية المغاربية.

الطيب مصطفى. (28/ 10/ 2015). عقدة اللون الأبيض في السودان. https://www.alnilin. com.

ر.د.ج سيمونز. (2009). لون البشرة و أثره في العلاقات الإنسانية. (جابر عصفور، المحرر، و علي عزت الأنصاري، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.

سعداء الدعاس. (2010). لأني أسود (المجلد 1). د.م: د.ن.

سميحة خريس. (2014). بابَنوس (المجلد 1). بيروت / الجزائر العاصمة: منشورات ضفاف / ومنشورات الاختلاف.

ضياء جبيلي. (2021). البطريق الأسود (المجلد 1). بيروت / البصرة: الهجان للطباعة والنشر والتوزيع.

وئام البشير. (بلا تاريخ). للسودانيين خمسون طيفا من الأسود . منظمة رصيف .www.raseef22 . net